أدب المقاومة في مصـــر
العدوان الثلاثي و أثره في الشعـــــر

فـــايـــز علـــي

مقدمـــــة

منذ خمسين سنة أعلن الرئيس جمال عبد الناصر (ت ١٩٧٠م) تأميم قناة السويس أملاً فى تحقيق جملة من الأهداف الوطنية فى مقدمتها تمويل بنـــاء السد العالى الذى افتتح فى الخامس عشر من يناير سنة ١٩٧١ أى بعد وفاته. وعجل ذلك الإعلان بوقوع العدوان الثلاثى فى آخر أكتوبر سنة ١٩٥٦، وإن كان التخطيط له يبدو سابقاً لذلك الإعلان نفسه. لقد جاءت تلـــك الأحـــداث مواكبة لثورة يولية ١٩٥٢، فشكلت باعثاً قوياً للأدباء كى يبدعوا نوعاً مـــن أدب المقاومة والنضال. وإذا كان الإعلان قد شجع النمط الغنـــائى العـــامى سواء بالإذاعة أولاً ثم التليفزيون ثانياً، فإن أدب المقاومة قـــد كتـــب باللغـــة العربية أيضاً ووفق قواعد جعلت منه امتداداً طبيعياً للأدب العربى الكلاسيكى وإن حمل طابعه وسماته المميزة. وفي هذه الدراسة الموجزة نحاول إيضاح تلك السمات في نماذج مختارة من شعر هاشم الرفاعـــــي، ومحمود غنـــيم، وبيرم التونسي.

" معركة القناة" قصيدة الشاعر هاشم الرفاعى (١٩٣٥-١٩٥٩م) :

تغنى شاعرنا بالحرية والاستقلال، ونادى بتحرير بلدان أفريقيا وآســـيا فانتصر لثورة الجزائر مثلاً، وأنشد فى ذكرى الجلاء، وغنى للشهيد، وامتدح الثورة وقائدها، وكانت أشعاره محكمة النظم مشعة بالإشارات إذ عبرت عن

صدق الموهبة والتمكن من اللغة وبلاغتها. لذلك قال عنه أساتذته **مثل زكى المهندس، وعلى الجندى** أنه لو بلغ مدى الثلاثين لصار أشعر أهل زمانه والقصيدة "دالية" تقع فى نحو خمسة وأربعين بيتاً ومطلعها :

بمدفعه المغرور قد صال واعتدى وراح علينا بالقذائف واغتدى[1]

وهو مطلع يشي بعدوانية المستعمر الذى ما كاد يرحل عن البلاد حتى عاود العدوان. وشاعرنا يستدعى، ويستعدى تيار المقاومة وكأنه يستمده من النيل الرفاق ... فيصنع عقدة درامية فتيلتاها العدوان والمقاومة . يقول شاعرنا :

وأغرى بنا عن الحدود كلابه وأرسل للعدوان يضرب موعدا
يحاول بالتهديد إذلال أمة وإلقاء شعب فى القيود وفى الردى
وهيهات ، إن النيل ضمد جرحه فلم يخسة مغلوباً على أمره – العدا
تخاذلنا ولى مع الأمس ، لم نعد عبيداً ، وكم ذا يصنع الخوف سيداً"

فأتى شاعرنا بجملة أفعال ماضية لكنها مرتبطة بالمضارع ليصور حال العدوان الراهن، وهى صال واعتدى – وراح واغتدى وأغرى – وأرسل يضرب ...إلخ وفى مقابل هذا العدوان الطاغى نجد النيل قد ضمد جرحه، فى استعارة وكناية عن الصمود. والمقصود طبعاً صموداً أهل وادى النيل، ولكن النيل يتدفق فى شعورنا بتيار الحياة المتجدد الذى يبدو مقاوماً لكل صور الإبادة. إن هذا المطلع يفيض بحيوية المقاومة، وإرادة الحياة، وينطوى على منهج كلامى فيه وضوح الحجة، مما يتأكد فى بقية القصيدة. وغير خاف أن مفردات الأبيات تتسق مع المفردات التى كانت تتردد فى خطب الزعيم **جمال عبد الناصر** آنذاك: "من يعتد على مصر اليوم يعتد على الأمة العربية كلها ومن يعتد على مصر سيدرك أنه جلب على نفسه مصيبة لن يتحملها مطلقاً، وسنعطى العالم مثلاً كيف تستطيع دولة صغيرة أن تقف أمام عظمى تهدده بقوة السلاح.[2]

وفى المقطع التالى من القصيدة حجاج بليغ عن ملكية المصريين للقنـــاة، وهذا بيت القصيد :

سلوا (إيدن) الموتور ماذا أثـــاره ... علينا ، فأرغى بالحـديد وأزبـدا
لئن ساءه أن يأخذ العقد أهـــل ... فمنطق الاستعمار ما زال مقعـــداً
قناتى وفى أرضي ، وجدى لحفرها ... أكب على الصحراء بالفأس مجهداً
وفوق ثراها فاض مـــاء جبينـــه ... وأدمى له جلاّده الظهر والـــــيدا
فلا صلحت هذى القناة ولا جـرت ... بحاجات قوم لا يمرون ســـــجداً

فبعد ما يدحض الشاعر منطق الاستعمار بسوق الأدلـــة المؤكـدة، فالقناة فى أرضه تجرى، وقد عانى جده ما عاناه فى حفرها .. ومن ثم جاء تهديده مقبولاً حين دعا بألا تصلح هذه القناة للمعتدين. " وصـــدق الـــشاعر الملهم فى تعبيره عن الإرادة المنتصرة، فلم تجر القناة بعد إصلاحها بحاجات أو لتلك القوم، إلا وهم يمرون بها سجدا ويعطون الجزيـــة عـــن يـــد وهـــم صاغرون".[٣] ونلاحظ هنا فى: **قناتى – أرضى–جدّى** – تكـــرار ضـــمير الملكية العائد على الشاعر نفسه لأنه اتخذ من مسألة القناة قضية خاصة به. ولنلاحظ أيضاً أن ثمة تياراً خافياً يجمع النيل والقناة وعرق الجـــد المكـــافح الذى سال فى شق القناة. إنه تيار الحياة المتجدد الذى صاغ منه الشاعر لحن قصيدته .

ولئن دار الجدل فى المقطعين السابقين بين إرادتى العدوان والمقاومـــة، فإن المؤامرة وإفشالها يصنعان طرفى الجدل فى المقطع التالى :

لكم تحت جنح الليل أبرم كيدهُ ... وطالعة تصميمنا ، فتبـــــددا
وشاء خداع الناس بالإفك إنه ... تعود هذا الأمر فيما تعـــــودا
وذاق شياطين المظلات بأسنا ... فأوردهم بحراً من الهول أسوداً
وقاومهم شعب إذا سيم خطة ... من الذل لا يلقى إلى الذل مقودا
مؤامرة كانت أعدّت فأحـــكمت ... ولكنها ضاعت على بابنا سُدى
بكل فتى يهفوا إلى الدم سيفه ... لا ينثنى حتى يروى له صـــدى

كذلك نحمى النيل من كل طامع ونسعى إلى العلياء كهلاً وأمردا "

وأحسن شاعرنا استخدام رمز الليل الذى يتسق هدوؤه مع جو المؤامرة، ورمز الفجر – الذى لم يصرح به – الذى طالع الكيد فبدده، والمطالعة أبلغ من الطلوع هنا فكان فجر التصميم واجه جنح الليل عن قصد ونية.(٤) ولا أدل على خداع العدو من أنه دأب على الإفك واعتاده، وهنا يضمن شاعرنا الشطر الأول فى مطلع المتنبى الشهير :

" لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا "

وشاعرنا يستحضر تفاصيل المعركة فيشبه قوات العدو المظلية التى أسقطها على مدينة بورسعيد بالشياطين، ولكن "بأسنا" نحن أوردهم بحر الهلاك الذى يوازن النيل والقناة اللذين ذكرهما شاعرنا من قبل، وكأن باله قد انشغل بالمياه نظراً لفرط تعلقه بالقناة، وتعود الصورة المائية – إن جاز التعبير – للظهور، فكل فتى مقاوم يروى عطش سيفه إلى الدماء فى سياق ملحمى أكد فيه شاعرنا فكره المؤامرة التى ضاعت سدى رغم إحكامها. لقد تبددت على بابنا الذى يشير إلى القناة مرة أخرى، وهكذا تتعدد الرموز والإشارات لتثرى تصوير النزاع المحتدم عند القناة، وهى باب مصر أو باب النيل اختصاراً "كذلك نحمى النيل..". وقد أفلح الشاعر فى أن يتخذ النيل رمزاً لمصر فى قصيدته كما اتخذ القناة بابها وغرتها. ومن المنطقى أن يتدرج القول إلى كفاح بورسعيد ، فيقول الشاعر:

" وفى الساحل المخضوب قامت مدينة تسطر أمجاداً وترفع سؤددا
فلم تخش نسر الجو يرسل فوقها شواظا بها شب الضرام وأوقدا
ولم ترهب الأسطول والحتف جاثم على ظهره يسمى إليها مهددا
فكم هابط فى كفه الموت مد هوى تلقفه رام له وتصيدا
وكانت لهم (دنكرك) أخرى ولم تكن كباريس للألمان صيداً معبداً

والصورة متكاملة مفعمة بـالألوان، فالـساحل مخـضوب (بالـدماء)، والطائرات (نسر الجو) تصب شواظها، والأسطول يحمل الردى، والمظليون يهبطون وفى أيديهم الموت، ولكن هذا ليس كل شيء فـثم الرمـاة المهـرة والصيادون القناصون يترصدون كل أولئك، فلم تكن بورسعيد بـاريس بـل دنكرك.[٥] وما لشاعرنا لا يقسم بها فيقول :

أقسمت بالبطل الشـــــهيد وبغضبة الشعب المجيد
وبثورة البركان بركـــــا ن العلا فى بُرْسعيد[٦]

إن كفاح بور سعيد أكد وحدة مصر و العرب علي نحو فريـد، فثـورة مصر كانت نموذجا للشعوب العربية التي شاركت مـصر محنتهـا، وكـان الشهيد جول جمال ابن سوريا خير دليل علي تلـك الوحـدة. وفيـه يقـول الرفاعي:

و تزاحم المتسائلون هناك عن هذا الشهيـــد
ذي السحنة العربية السمراء و البأس العنيـد
أتراه من أهل الثغور..أكان من ريف الصعيـد؟
و جري الجواب علي الشفاه يهز أسماع الخلود
قد جاء من بلد وراء البيد..أقبل من بعيـــد
ليضيف عدة أسطر بيض إلي الأمل الوليـــد
فيقول جاري: هل سمعت؟ لقد بعثنا من جديـد
قد كان يحمي اللاذقية ها هنا في بور سعيـد

ويجسد شاعرنا روح الأمة المصرية التى ما فتئت تقاوم المحتلين، ومـا مقاومتها البريطانيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين إلا فصل من فصول ملحمتها المجيدة التى استهدفت السلام. وهذا ما يعبر عنه شاعرنا فى المقطع التالى الذى نجتزئ منه قوله :

" ألا إننا شلنا السلام ، فلم نجد مجالاً لكى يبقى لنا السيف مغمدا
ولم نك مختارين عند امتشاقه على الرغم منا أن نمد المهنـدا

والشاعر لا يعبر وحسب عن الحال الراهنة بل عن طبيعة أصيله في حضارة مصر عبر العصور. فحروب مصر لم تكن إلا عن ضرورة واضطرار رداً للعدوان،[٧] ولا عجب أن يذهب **أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل (ت ١٩٦٤)** – الذى كان معاصراً بشكل ما لشاعرنا إلى أن الحرب ليست من طبيعة البشر رغم كل المبررات التى ساقها بعض المفكرين لدحض هذه المقولة، وكأنى بأستاذ الجيل هنا يقدم رؤيته المصرية المناهضة للحرب فيعتبر أن الحرب ليست فى طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان ، فيقول : " **والدم من حيث هو لا يصح فاسداً ولا يفسر صحيحاً والذى يراه أنصار السلام هو أن الحرب ليست من طبع الإنسان كالعائلة والأبوة والعمل، بل هى عادة تأصلت فى نفوس الناس يمكن القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التى لا شك فى أن العالم يتقدم فى أمرها**".[٨] وقد نسأل كيف تتسق هذه الرؤية المسالمة مع قول الرفاعى نفسه فى قصيدته"سنقاتل" التى نظمها أيضاً فى أواخر أكتوبر ١٩٥٦ إبان العدوان:

نار على جنبات النيل تحتدمُ فلينصف السيف إن لم ينصف الكلم
إنى رأيت طلاب الحق مضيعة للوقت إن لم تذد عن حوضه همم
واحزم الناس من لو قام منبعثاً حقاً ، إلى السيف لا للقول يحتكم "[٩]

ولكن عذر الشاعر ممهد، فقد احتدمت الحرب على جنبات النيل وحدث العدوان فعلاً فحينئذ يكون الاحتكام للسيف كى يحمى الحقيقة ويدافع عن السلام، ويبدو الرفاعى هنا سائراً على نهج البارودى (ت ١٩٠٤م) الذى قال من قبل إبان الثورة المصرية سنة ١٨٨٢:

إذا المرء لم ينهض بقائم سيفه فياليت شعرى كيف تحمى الحقائق

وقال فى معادلة فريدة بين السيف والقلم في قصيدة لتوفيق بمناسبة جلوسه سنة ١٨٧٩م :

فالسيف لا يمضى بدون رؤية والرأى لا يمضى بغير مهند

ويذكرنا البيت الثانى فى مقطع الرفاعى بقول الحكيم زهير:

" ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم"

فالسيف إذن وظيفته الذود والدفاع لا العدوان، ومـن لا يظلـم النـاس افتراضاً وإمكاناً – أى يتوقع ظلمهم له؛ فإنه يتعرض للظلم على أيديهم فعلاً. والمفاضلة بين السيف والقلم شغلت الأدباء قديماً، فتباروا فى ذلـك وكتبـوا المناظرات مثل **مناظرة العماد الاصفهانى.**[١٠] وفيها يعـرض كـل منهمـا حجته، فيقول القلم بعد المقدمة: " إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا .. به رقم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل .. (وهو) المتـيقظ لجهـاد أعدائها (أى الأمة) والسيف فى جفنه نائم .. فعند ذلك نهض الـسيف قائمـاً عجلاً". وقال بعد مقدمة أيضاً: " إن السيف زنده القوى، وحده الفارق بـين الرشيد والغوي..". وتستمر المرافعة والحجاج بين السيف والقلم حتى يـأتى وقت الحكم: " فلما رأيت الحجتين ناهضتين والبينتين متعارضتين رددت القلم إلى كنه، وإغمدت السيف فنام ملء جفنه، وأخرت بينهما الترجيح ".[١١]

ليس هذا وحسب، فللكلمة فى المعتقد المصرى قوة تتجاوز أحيانا كل القوى المادية، وهذا ما يظهر فى حكمة **خيتى الرابع (ح . ٢٠٧ ق.م):" إن صاحب الحق لا يجد من يفحمه** ". على حين يتردد ذلك المعنى بصورة أكثر حماساً ليلائم سياق أنشودة الملك **سنوسرت الثالث (١٨٧٩-١٨٤١ق.م) :"** ونطقه (أى كلامه) هو الذى يجعل البدو يولـون الأدبـار"[١٢]. وإذ كـان سنوسرت الثالث سكينه قد أمات الألوف من رماة السهام"[١٣] فإن بورسـعيد هاشم الرفاعى كانت صياداً للعدو ولم تضح صيدا لـه وكانـت دنكـرك لا باريس. ثمة إذن قوة معنوية خافية فى كفاح مصر مثل تلك القوة الخافية فى سكين ملكنا سنوسرت .

رؤية إجمالية للقصيدة : عقد الشاعر مقابلة بين طبيعتى الحرب والسلم والعدوان والمقاومة فحشد فى جهة تعبيرات مثل المدفع المغرور والقذائف والتهديد والمؤامرة وإيدن الموتور الذى أرغى بالحديد وازبد، والكيد فى جنح الليل .... وفى مقابلها تعبيرات مثل: النيل المضمد لجراحه، وقناتى وأرضى وتصميمنا .. ونرى أن القصيدة اكتسبت حيويتها من هذه المقابلة غير المتكلفة فى مجملها، مما حملنا على التفاعل مع أحاسيس الشاعر ذى الأنفاس اللاهثة التى لا تخف حدتها وتخفت إلا حين يقول مختتماً قصيدته :

" وخلف ضباب الظلم يلمع بارق ... به أمل للثائر الحر قد بدا
وأسمع لحن النصر فى كل أمة ... مكبلة فوق الشفاه ترددا

هكذا تبدأ القصيدة بإدانة العدوان وتنتهى بنبوءة النصر لمصر ولسائر الأمم المكافحة التى طالما تغنى شاعرنا بكفاحها فى ديوانه.

وإذا كنا اليوم بصدد أدب المقاومة فما أشبه الليلة بالبارحة ! فلنرجع إذن إلى أدب البطولة المتمثل في سيفيات المتنبى وأدب الحروب الصليبية مثلا لنقف على أوجه التشابه والتباين، وهنا **نسأل ما الجديد فى شعر المقاومة الحديث؟** لعل من اللافت للنظر أن البطولة هنا فكرة عامة مجردة، ورغم السياق الفخرى العارم فى قصيدة الرفاعى، فإن البطولة لا تصب فى شخص بعينه بقدر ما تتقمص روح الشعب كافة. على النقيض من سيفيات المتنبى التى تدور حول شخصية سيف الدولة صاحب الانتصارات العظيمة، **وصلاحيات ابن سناء الملك** (وغيره) التى يبرز فيها البطل صلاح الدين، وبقدر ما نسُج حول شخصية البطل من أساطير ومبالغات كان تفرد تلك القصائد القديمة من مثل قول المتنبى عن سيف الدولة[١٤] :

وصول إلى المستصعبات بخيله ... فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

بل إن المتنبى يفرط فى فخره بنفسه حتى يبدو بطلاً آخر منافساً لسيف الدولة.

نماذج من الشعر الوطنى

قدمنا إحدي القصائد الوطنية لهاشم الرفاعي، ونبحث الآن قصيدة للشاعر محمود غنيم عن تأميم القناة. ولشاعرنا مجموعة من القصائد تغنـى فيهـا بالثورة المصرية وملاحمها الوطنية إبان الجلاء وتأميم القناة والوحـدة مـع سوريا وبناء السد العالى، وقد اختص القناة بقصيدتين : واحدة فى تأميمهـا والثانية فى حربها.

تقع **القصيدة الأولى** فى نحو ستين بيتاً يعرض فيهـا الـشاعر تـاريخ حفرالقناة عرضا وجدانيا مؤثرا ثم يعرض لمعاناة المصريين عبر العصور، ويشيد بتأميم القناة لأنه ردها إلى مصر، ويصور فى عزة وانتشاء صـمود مصر، ويتوعد الغرب المعتدى. وكأنما أدرك الشاعر بحدسه أن المعاناة هى لب المسألة، فما فتئت القناة مرتبطة بمعاناة مصر والمصريين منـذ كانـت جنينا حتى غدت كياناً مكتملاً أراد البعض أن يجعل منه دولة داخل الدولة .

هذه القناة التى غدت مطمعاً للغزاة جعل منها الشاعر فلذة غاليـة، بـل جعلها قلب النيل الذى لا حياة لمصر بدونه، ورأى منها عن حـق مـصدر الموت لمصر، ومبعث الحياة للشرق والغرب فى نفس الوقت :

* ربض الجيش على خط القناة	وعلى شطآنها ألقى عصـــــاه
أيها العيش أعدها للحمـــــى	فلذة شطآنها ألقى عصـــــاه
هى قلب النيـــــل إلا أنهم	وضعوها بين أضلاع ســـــواه
ساقت المـوت إلى مصر وإن	بعثت فى الشرق والغرب الحياة[١٥]

وإذ كانت القناة مبعث الموت والحياة معاً، فـإن شـاعرنا أدرك بهـذا التعريف جوهر تلك القناة، فلم يهتم بأبعادها أو موقعهـا بقـدر مـا اهـتم بخطورتها وأهميتها ومضى يشرح كيف اقترن ميلاد القناة بموت العاملين فى حفرها :

* هذه الحفرة من عمقـــــها ؟	ذلك الجسرُ المعلى من بناه ؟

رب فلاح شكت فى كفـــــــه فأسه الخرساء إذ خارت قواه
لم يزل يحفـــرها حتى جرى مـــاؤها وهو مشوب بدماه "

فلولا وفاة أولئك العمال الكادحين أو إعياؤهم لما ولدت القناة ! ويستطرد الشاعر إلى مسألة التأميم الذى هدف من ورائه عبد الناصر إلى تمويل بنـــاء السد العالى بعد ما سحب البنك الدولى عرضـــه بـــسبب ضـــغط الولايـــات المتحدة:(١٦)

حينما قال جمـــــال "أممت" رقص الوادى وغنت ضفتاه
وسرت فى كل عطف هزة وتمشت بسمة فوق الشفاه
ما بنى التأميم سداً عاليـــاً بل بنى للنيل جاهاً أى جاه

هنا يتأكد مرة أخرى الشعور الجماعى الذى طغى على كل ما عداه مـــن أحداث حتى أن شاعرنا لا يلتفت إلى المزايا المادية الملموسة لتأميم القناة قدر التفاته إلى ما حققه ذلك من مكاسب معنوية للشعب المصرى كافـــة، الأمـــر الذى يفسر لنا لماذا خلت هذه القصيدة وضربياتها مما عهدناه فـــى القـــصائد العربية الفخرية – مثل سيفيات المتنبى – من خبرات إنسانية عميقة أو حكم وأقوال تجرى مجري الأمثال(١٧). وتتأكد هذه السمة فى ختـــام القـــصيدة إذ تتصاعد نغمة الفخر الشعبى ، فيقول الشاعر :

" أيها الغربُ اتئذْ إن هنا ضيغما قام يحـــامى عن شراه
لا يبالى حين يحمى حقه لو عـــدا الدهر عليه لرمـــاه
يطلب الحق بجيش باسل حالق الجـــــو نسور وبـــزاه
لا يحق الحق إلا قـــوة تفعـــل القوة ما يعيي القضاه

يطرح شاعرنا قضية الحق والقوة. فالحق بدون قوى تسانده قد يضيع فى معارك الحرب والسياسية كما قال الرفاعي أيضا، وقد أشرنا من قبـــل إلـــى التساند المطلوب بين القوة (السيف والسلاح....) والقلم (الكـــلام والـــرأى والحق....) وشاعرنا حينما ينتصر للحق ضد القوة إنما يستعيد حكمة الملك

الحكيم **خيتى** الرابع (ح . ٢٠٧ ق.م) حينما قال : "**إن الكلمـــة أقـــوى مـــن السلاح**".[١٨] ولا عجب أن يتوعد الشاعر الأعداء، فيحذرهم من الأسد الـــذى يدافع عن عرينه، والنسر والباز المنقضين من السماء إلى آخر تلك الـــصور المصرية الأصلية، التى عجت بها ملاحم تحتمس وسيتى ورمسيس منذ القدم. فرمسيس فى **قـــادش** " مثل الإله منتو سلطاناً وقوة"[١٩] وهو الأســـد القـــوى المخالب، العالى الزئير" الذى يفتك بفرائسه، وهو الفهد سريع العدو، وهـــو العاصفة التى تقتلع الأعداء ....إلخ. ولا عجب أن تعلق هذه الصور البلاغية بأذهاننا منذ الصغر نظراً لتأثير تلك الملاحم القديمة فى الخيـــال والـــشعور الجمعيين، فتجرى على ألسنة الشعراء بوعى أو بدون وعى، **ومنتـــو** هـــو الصقر أو الباز أو الباشق الذى ينقض فاتكاً بالأعداء كما تصفه الملحمة إذ أن منتو إله الحرب القديم كان يظهر فى هيئـــة الـــصقر أو الإنـــسان ذى رأس الصقر.

وأما قوله: " لو عدا الدهر عليه لرماه" فيستعيد تعبير **ابن منقذ** الشهير: " وينقاد طوعاً فى أزمتنا الدهرُ". ليس التعبيران متطابقين، ولكن تحدى الدهر (الزمان) وارد فى الحالين. وعلينا أن يتسع خيالنا لندرك أن المقصود لـــيس الدهر ذاته بل أهل الدهر على سبيل المجاز المرسل. وقد أحسن البـــارودى التعبير عن هذا المقصد فقال: "فإنى إن ذكرت الدهر فإنما أقصد بـــه العـــالم الأرضى لكونه فيه، من قبيل ذكر الشيء باسم غيره لمجاورته إياه، كقولـــه تعالى: (واسأل القرية) أى أهل القرية".[٢٠]

الشعر الوطنى وشعر المناسبات

لا يعيب الشاعر أن يكتب فى مناسبة عزيزة لديه،فيصدر عن موهبـــة صادقة و تجربة حقة. وإنما يعيبه أن ينظم في كل مناسبة نظمـــاً متكلفـــاً لا صدق فيه ولا تجربة.[٢١] وجدير بالنقد الأدبى الآن أن يقـــف مليـــاً بـــأدب

المناسبات التاريخية والأدب السياسى الوطنى ليرصد منحنى تطوره ويتلمس خصائصه. وقد لا يتسع المقام هنا لرؤية متأنية بيد أنه ينبغى التنويه بما يتمتع به الأدب الوطنى من حماسة ومشاعر دافقة تجعل منه أدباً إنسانياً خالداً فيه ملامح رومنسية إذ يتوق إلى الكمال والمثل الأعلى، وفيه روح ملحمية تكشف عن أسمى المشاعر الإنسانية من فداء وتضحية وإيثار وإقدام. والأمم بحاجة إلى استعادة هذه المشاعر وتجديدها على الدوام .

ولدى المقارنة السريعة بين أدب العدوان الثلاثى (حديثاً) وأدب الحروب الصليبية (قديماً) يلفت نظرنا عدة أمور، منها وجود رؤية كونية تقوم خلف مشاعر الفخر والاعتزاز وهذه الرؤية تظهر فى خطب ومقالات وقصائد شتى، ونضرب لها مثلاً بمطلع قصيدة أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) الشهيرة :

أبى الله إلا أن يكون لنا النصر ... لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعاً فى أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ... ويرهبها منا على بُعْدنا الذكر[٢٢]

وتستمر الأبيات فى هذا النسق الفخرى المطنب، إذ تتأكد فى قول الشاعر سيطرة القوم على الدنيا مكاناً وزماناً (العصر والأيام والدهر). والسيطرة هنا ليست وهمية بل حقيقية – فى رأى الشاعر لأنها تتم بإرادة إلهية واعية، وإن جاءت على غير هوى الأعداء الذين شنوا حرباً عدوانية مدمرة (حروب الفرنجة) تحت وهم السيطرة على الدنيا زماناً ومكاناً. وفى تصورنا أن هذا المطلع ينطوى على منهج كلامى شديد الإقناع للمؤمنين بنصر الله، وهم الجماهير التى يخاطبها الشاعر.

والجدير بالذكر أن المصرى اعتقد قديماً فى أن الإله هو الذى يمنح مصر ومليكها النصر على الأعداء، فآمون رع إله الأمبراطورية يهب

تحتمس الثالث (ح١٤٧٠ ق.م) القوة والنصر على أمم الأقواس التسع (التى ترمز للأعداء التقليديين لمصر).

ورع إله الشمس هو الذى يطأ أرض خيتا (مملكة الحيثيين) لمحبوب آمون رع (أى رمسيس الثانى). وحين توشك الدائرة أن تدور على رمسيس ويتخلى عنه جنده لا ينقذه إلا آمون – رع إذ يهرع إليه رمسيس ويجأر بالشكوى على نحو ما فعل زعيمنا عبد الناصر إذ قام خطيباً فى الجموع بالأزهر إبان العدوان الثلاثى. أي دور كبير يؤديه إذن الشعور الديني في الحالين؟

لكننا نلاحظ بوضوح غياب التبرير الدينى لحرب المقاومة فى قصيدة هاشم الرفاعى. أما قصيدة ابن منقذ فتبدأ بالتبرير الدينى القوى، وتستمر تنسج على هذا المنوال فى معظم مقاطعها. وفى تصورنا أن الشعور الدينى القوى موجود و قائم عند الشاعرين، ولكن يبدو أن ثمة استنفارا شديدا للشعور الديني في أدب الحروب الصليبية كله لا في قصيدة أسامة وحدها، وسببه كامن وراء شعارات تلك الحروب و الحملات، ويبدو أن تذرع الفرنجة بالدين فى الحال الأولى هو الذى استنفر الشعور الدنيى، فظهر واضحاً جلياً فى رائية أسامة. أما فى حال العدوان الثلاثى فالعنصر الواضح فيه كان التواطؤ بين الاستعمار الغربى والصهيونية ضد الحركة الاستقلالية التى تبلورت عن فكرة القومية العربية، وكانت مصر مركزها وبؤرتها، ومن هنا لم تكن الحاجة ظاهره لاصطناع مبررات دينية للمعركة .[٢٣]

وكذلك اكتسبت القصيدة الوطنية وحدة عضوية إذ ترابطت فيها الأغراض لتؤلف موضوعاً واحداً، ولذلك غابت المقدمات الطويلة، واختفت الأغراض الغنائية المعهودة فى القصيدة العربية التقليدية. وحلت محل ذلك جمعيه صيغة ملحمية اصطبغت بها القصيدة الوطنية، فتغنى الشاعر بالمجد

والبطولة، وتحدث بلسان الوطن وجماعاته التى انصهرت فى وحده واحـدة رغم ما بينها من تباين فى الرأي وتعدد فى المشارب. ومن ثم سادت نظـرة متفائلة مؤمنة بالنصر.

فن الملحمة بين قادش والسويس:

ومع كل هذه الملاحظات غاب شيء هام فى تصورنا عن جل القـصائد الوطنية، وكان غيابه أوضح فى أغانى الإذاعة وأناشـيدها، ونعنـى بـذلك الرؤية النقدية التى لا غنى عنها للتبصير بالأخطاء الذاتية والتحذير من غدر الأعداء ولؤمهم. والتحليل التاريخي يقفنا على بعض الأخطاء التى اعتـرت التخطيط العسكرى، فقد تم الدفع ببعض القوات الماشية والمدرعة إلى خـط المواجهة وسرعان تم سحبها خلال ثمانى وأربعين ساعة حرصاً عليها مـن إصابة محققة، مما أدى إلى تعرضها إلى مخاطر أثناء الأنـسحاب أيـضاً، وذلك رغم الثبات الذى أبدته القوات المصرية فى رفح وأبى عجيلة و ممـر متلا وشرم الشيخ " **وفى غياب الطيران المصرى تم الانسحاب من سـيناء دون تغطية جوية، وصبت الطائرات الفرنسية والبريطانية نيرانهـا علـى القوات المنسحبة فى هجمات لا تهاون فيها. كانت تقذف وتنقض وتحـرق بقنابل النابلم الرجال والمعدات**".[٢٤] ومع ذلك وصلت معظم القوات المصرية بسلام إلي القناة. ونحن نبحث هذه المسألة من الوجه الأدبية نستدعى موقفـاً مشابهاً حدث فى موقعة قادش (١٢٨٥ق.م) التى كان بطلها الملك الـشاب رمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٣ ق.م) الذى استخفته جرأته وشجاعته فتقـدم تقدماً غير محسوب وهو في قلة من العتاد والجند، مما أوقعه فى فـخ كـان سيكلفه حياته إذ فاجأه الجنود الحيثيون وكادوا يفتكون به أو يأسرونه لـولا إقدامه وشجاعة حواديه على حد تعبيره – بينما انفض عنه جنوده وبقى الملك يناضل ببسالة حتى أتته النجدة فانقلب ميزان المعركة.

وبينما غابت أى إشارة نقدية إلى قصور التخطيط فى **معركة السويس**، فاللافت للنظر أن **ملحمة قادش** الشهيرة – رغم ما فيها من مبالغات – سجلت كل ما حدث – فوصفت بدقة مشاعر رمسيس فى تلك الساعة الحرجة، وردود أفعاله، ونكتفي هنا بندائه لجنوده أن يثبتوا، فقال لهم: " **ما أشد تخاذل قلوبكم يافرسانى! وإنه لمن العبث الاعتماد عليكم ..**".[٢٥] ويضيف نص الملحمة حكاية عن فرعون قوله: "ثم قال جلالته لمشاته وكبار ضباطه وفرسانه: **ما أعظم الجريمة التى ارتكبتموها يا كبار ضباطى ويا مشاتى ويا فرسانى ! أنتم يا من لم تحاربوا ! ألم يتفاخر الواحد فى مدينته بأنه كان شجاعاً أمام سيده الطيب؟ ألم أقدم إحساناً لأى منكم ؟ كيف تهجروننى وسط الأعداء؟...**".[٢٦] نغمة التوبيخ عالية رنانة، وهى تفيد كل من يطالع اليوم هذه الملحمة إذ تنقل إليه دروساً هامة تهديه فى غدة، فالمطالع للملحمة يعرف تفوق الحيثيين فى وسائل الاستطلاع والخداع وامتلاكهم زمام المبادأة والمفاجأة فى موقعة قادش، ومن مثل هذه الانتقادات القاسية قد يتعلم قارئ الأدب أضعاف ما يتعلمه من عبارات النصر ومديح القادة.

وإذا عدنا إلى قصيدة **ابن منقذ** وجدناها بالإضافة إلى جديتها وقوتها أشبه بيوميات المراسل الحربى الذى عاصر المعارك وأتقن وصفها، فيقول لنا مثلاً : ونحن أسرناالجوسلين..و قتلنا البرنس.. ونحن كسرنا البغدوين .. وسرنا إليه حين هاب لقاءنا .. ونحن فتحنا تل باشر". [٢٧] وكذلك الحال فى موقعة قادش التى يروى فيها ملكنا رمسيس عن واقع الحال فى حومة الوغى، فيصف خفايا الحرب ودقائقها، ويسبر أغوار النفوس: نفوس من معه من جند وقادة وأعداء .. وإنا لواجدون فى **حوليات تحتمس الثالث** نموذجاً لأدب الحوليات لعله هو الأقدم في التاريخ.

ولا نريد أن نقول إن شعراء حرب السويس لم يبلغوا شأو أسلافهم في الملاحم الصليبية أو في ملحمة قادش. ولكنهم لم يرصدوا لنا تفاصيل المعارك ولم يقدموا لنا من ثم رؤية نقدية لا زلنا في حاجة إليها رغم فوات كل تلك السنين. والآن ننتقل إلي الزجل لنري كيف عبر عن حرب السويس.

محمود بيرم التونسى وتأميم القناة

وقفنا على نماذج من الشعر العربى كقصدية الرفاعى، وها هنا نأخذ نموذجا من الزجل لبيرم التونسى (ت١٩٦١ م) الذى كان بلا شك من كبار أئمة الزجل فى عصره، ولعل ذلك يرجع إلى التقائه بالشعب فى معاناته، فعبر عن الاشتراكية وجسد أبعادها الاجتماعية والسياسية، وناهض الفساد والإقطاع والنفوذ الأجنبى داعياً إلى الاستقلال والوحدة العربية والعدالة الاجتماعية. وفى زجليته عن تأميم القناة يشيع روح التحدى والإصرار، كما يسخر من الأعداء سخرية لاذعة، ويعبر عن انتمائه لوطنه .. يقول بيرم :

فى أرضنا وبسواعدنا القنال اتمد ... ميراثنا أصله لنا من عند سابع جد
وفيه سفن كل دولة ماشية ما تتصد ... قالوا بلا مرشدين من عندهم ينهار
الحمد لله بإيديهم أهو اتسد[٢٨]

وزجالنا يؤكد – كما فعل الرفاعى – على امتلاك مصر للقناة منذ القدم وأن أمور القناة كانت تسير على ما يرام، وظلت كذلك بعد إبعاد المرشدين الأجانب أو سحبهم بالأحرى رغبة فى تعطيل الملاحة والإضرار بموقف مصر، وتتجلى المفارقة فى نجاح المرشدين المصريين – وقد عاونهم المرشدون اليونانيون أيضاً – ففشلت مؤامرة سحب المرشدين، ولم يبؤ المعتدون إلا بسد القناة فى وجوهم هم أنفسهم وإذا بانجلترا **سيدة البحار تغرق فى القناة :**

ست البحار فى قنال شبرين غرقانه ... إهانة يا إنجلترا ما بعدها إهانة

يا مجرمين يا الى جيتونا على خوانه الدنيا فى الحرب شايفاكم وشايفانا

ويستخدم بيرم التعبيرات المصرية الأصلية، فكلمة "ست" مؤنـث "سـي" وتعنى" سيدة"، وقد كانت إنجلترا اعظم دولة بحرية فإذا بها تغرق في شـبر ميه كما في المثل الشعبي، وهذا يعني منتهي الفشل. وبذلك ينجح بيرم فـى التهكم بإنجلترا والتعبيرات عن روح السخرية منها عند العامة. وأما توعـده للمجرمين بأن العالم كله يراهم فدليل على افتضاح أمرهم وفشل تـدبيرهم، وهم "**جوم على خوانة** " على حد التعبير الشعبى. ويعزز بيرم جو السخرية بتوعده **إيدن** بالهزيمة ، فيقول:

إيدن يا عايق حسبت الحرب دى عياقة وبعت جندك لناس للموت مشتاقة

تحسبها فى بورسعيد والمنزلة خناقة لقيتها مدبح وأجنادك غنم فيها

أقف بقى عالمراية صلح الياقة

وإيدن إذ يبدو عايقا، فالعياقة هنا لا تعنى الظرف وخفة الدم لأن الكلمـة مشتقة من إعاقة الطريق [٢٩]، فالعايق هو قاطع الطريق، وهو هنا ممثل دولة عظمى وإمبراطورية منطفئة. وتتأكد إدانة ذلك السياسى حين يزج بجنوده فى مذبحة، وكأنهم غنم تُساق إلى الذبح. ويمعن زجالنا فى إهانته فينصحه بأن يصلح الياقة حتى يبدو حسن الهندام أمام الرأى العام، وكأن هذا هو كل مـا يعنيه من الأمر، سخرية ما بعدها سخرية. وأصالة شعر بيرم لا تقف عنـد هذا الحد بل تتجاوزه إلى انصهار ذلك الفنان المناضل فـى حيـاة الـشارع المصرى حتى غدت معاناة الكادحين جميعهم معاناة خاصة به هـو نفـسه، فانطلق لسانه ليعبر عن كل ما كان الناس البسطاء يعانونه فى كـل حـين. وانظر إلى تعبيره أن القناة ميراثنا من **عند سابع جد** تجده تعبيـراً مـصرياً أصيلاً ، فالقط – ويرمز فى الأسطورة إلى رع إله الشمس أيضاً – له سبعة أرواح، ومن ثم فالجد السابع أورثنا القناة بخلودها الذى يشبه خلود الـشمس فى مدارها.[٣٠]

هكذا اهتم الشعراء بقضية الوطن لدي تأميم القناة فلم تلن قناتهم، وعبروا بالعامية و الفصحي عن روح المقاومة التي اشتملت مصر من أقصاها إلـــي أقصاها. وإن كنا اكتفينا بنماذج قليلة فقد اتضح لنا منها أن ثمة سمات لشعر الوطنية الحديث لا بد للناقد أن يرصدها بدأب وموضوعية، ونرجو أن نكون قد أسهمنا في أداء هذه المهمة.

obeikan.com

الهـوامـش

(١) ديوان هاشم الرفاعى، تقـديم محمـد كامـل حتـه، المطـابع الأميريـة، القـاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ، ص٢٠٤-٢٠٦ وقد عرف الدكتور كامل حته شاعرنا بأنه من ألمع شعراء الثورة العربية الكبرى ، فهو يتغنـى بمبادئهـا وانتـصاراتها ، ويخوض معاركها فى كل ميدان .. المرجع نفسه : ٤٩ .

(٢) نجلاء أبو عز الدين، ناصر العرب، دار المستقبل العربى، القـاهرة ، ط١٩٨٨،١، ص١٥٦. والنص من خطاب عبد الناصر فى كلية الطيـران فـى ١٥ سـبتمبر ١٩٥٦.

(٣) ديوان هاشم الرفاعى : المقدمة :٥٠ .

(٤) نرى أن الشعر العربى مليء بالرمزية، التى تسبق الرمزية الحديث (بودلير وبلـوك وبالمونت...) لولا عدم التفات النقد إليها، وقد عرضت تصورنا هذا في دراسـتنا "الرمزية والرومنسية فى الشعر العربى ".

(٥) لقي البريطانيون في دنكرك هزيمة قاسية، ودنكرك مدينة بشمال فرنسا، شهدت فـي ٢٦ مايو-٤ يونيو ١٩٤٠ عملية إجلاء نحو ٣٠٠ ألف من جنـود الحلفـاء إلـي إنجلترا بعد أن عزلتهم القوات الزاحفة علي سواحل بحر المانش و خربت المدينة تماما. بعكس انتصار الألمان السريع في باريس إبان الحرب العالمية الثانية.

(٦) وهى مطلع قصيدته التى عنوانها (بنت العروبة)التى ألقاها فى الثانى مـن ديـسمبر ١٩٥٧.

(٧) كانت مصر مملكة مستقلة مكتفية بحدودها إبان الدولتين القديمة والوسطى لما ينـاهز ألفاً وخمسمائة سنة أي حتي سنة ١٧٠٠ق.م تقريبا، ولم تبدأ حروبها التوسعية إلا بعد هزيمة الهكسوس المحتلين وطردهم سنة ١٥٥٠ ق.م، فأصبحت إمبراطورية بلغت أقصى اتساعها مع تحتمس الثالث (ح١٤٧٠ ق.م).

(٨) أحمد لطفى السيد، قصة حياتى، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٨، ص٢١٢. ومن دعاة السلام أيضاً الفيلسوف كانط (ت١٨٠٤م) في "مشروع السلام الـدائم" وبرتراند راسل (ت١٩٧٠م).

(٩) ديوان هاشم الرفاعى : ٢٠٢ .

(١٠) محمد سيد كيلانى، أدب الحروب الصليبية، ط ٢، دار الفرجانى، القـاهرة ١٩٨٤، ص١٠٠.

(١١) كيلاني : أدب : ١٠١ – ١٠٦ .

(١٢) سليم حسن، الأدب المصرى (١٩٤٥)، دار أخبار اليوم، العدد ٢، القاهرة ١٩٩٠، حـ٢، صـ١٨٥ .

(١٣) نفسه : ٢ : ١٨٥ .

(١٤) أوضحنا فى دراسة لنا لدالية المتنبى هذه كيف مزج المتنبى بين المـدح والفخـر والحكمة فى نموذج فريد .

(١٥) محمود غنيم، ديوان فى ظلال الثورة، دار المعارف بمصر ١٩٦١، ص١٦-١٩ .

(١٦) عن مسألة تأميم القناة راجـع مـثلاً: Vatikiotis , The Modern History of Egypt , Weidenfeld, London 1969, p. 392 ff. حسن البدري وفطـين أحمد فريد، حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة١٩٩٦.

(١٧) إنصاف الشعر العربى ضرورة نقدية، إذ لدينا منذ الجاهلية أشعار إنسانية عظيمة لا يجب تجاهلها.

(18) Brunner, Altaegyptische Weisheit, W .B. G, Darmstadt 1988 ,S.142 .

(١٩) سليم حسن، الأدب المصرى، ٢ : ١٩٥ .

(٢٠) ديوان البارودى ، شرح الجارم ومعروف، دار المعارف بمصر ١٩٧١، حـ١، مقدمة البارودى، ص٥٩.

(٢١) أكد المازني والعقاد على أهمية الصدق فى تجربة الشاعر، وانتقـد العقـاد تكلـف شوقى فى أشعاره .. راجع العقاد والمازنى، الديوان فـى النقـد والأدب ١٩٢٢، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص٢٤ وقارن المازنى، الشعر غاياته وسـائطه، تقديم مدحت الجيار، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٦، ص٧٢. وابن خلدون يقـدر دور الصنعة على ألا تجور على موهبة الشاعر .. المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص٥٣٩.

(٢٢) كيلانى : أدب : ٣٧٨.

(٢٣) سليم حسن، الأدب : ٢ : ١٩٠ عن مدائح تحتمس الثالث .

(٢٤) نجلاء، ناصر:١٦٨.

(٢٥) سليم حسن، الأدب: :٢:٢٠٢ وقارن:عبد الرحمن زكـي، الجـيش فـي مـصر القديمة:٢٢٢ وأيضا دراستنا عن أبي سمبل.

(٢٦) سليم حسن:الأدب:٢:. ٢١٢

(٢٧) كيلاني:أدب:٣٧٩-٣٨٠.

(٢٨) راجع:عبد الله أحمد عبد الله، بيرم ثائرا شاعرا، القاهرة، د.ت.

(٢٩) عن العياق تحدثت مراجع الأدب الشعبي مثل:محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.

(٣٠) علي نحو ما صورته برديات كتاب الظهور نهارا المعروف خطأ بكتـاب المـوتي مثل بردية آني وهونفر.